تفريغ محاضرة

سَتنجلِي

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤١/٧/٢٢ هـ

سَتنجلِي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدهِ الله فلا مُضل ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً رسول الله، أما بعد..

نعيش الآن في فترة ليست سهلة ولا يمكن للإنسان أنه يتهاون فيها، أو أن يُقلِل من حجمها، فهي فترة استثنائية غير اعتيادية، والناس في ردود أفعالهم تجاه هذا الحدث تتنوع بين أربعة ردود:

- إنسان مادي عقلاني بحت: فكل ما يشغله هو أرقام وزارة الصحة المصدرة يوميًا لعدد المصابين بفيروس كورونا، ويهتم لتصريحات منظمة الصحة العالمية، وما هو الحال في الصين وأمريكا وإيطاليا، وكيف سيكون الحال لدينا خلال الأسابيع الماضية، ويناقش هذه القضية بشكل عقلاني مادي بحت.
- وفي المقابل إنسان آخر غير مبال : فتجده غير مهتم بكل ما يحصل، وما يهمه هو مصالحه الشخصية، دون أدنى شعور بحجم الحدث الذي نمر فيه.
- وبالمقابل يأتيك إنسان خائف وهلع: فلا يفعل أي شيء ولا يمارس أي فعل في حياته المستجدة، ويتابع الأخبار والإحصائيات بنهم وتشاؤم عال.

هؤلاء الثلاثة يقابلهم الرابع..

وهو الإنسان المتزن الحكيم والذي يمثل منهج المؤمن المُتزن العاقل، فلا يمكن للمؤمن أن يواجه الحدث بعقلانية مجردة، ولا بخوف مبالغ، ولا بعدم المبالاة ، فمنهج المؤمن يكون متوازن بين عقلانيته وعواطفه.

والإنسان يبذل الأسباب التي تبعد عنه - بإذن الله - الإصابة، وهذا من تمام العقل ومن تمام ما أمرنا فيه الشرع والدين،

وفي المقابل أيضاً نؤمن عقيدةً " **أنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لن يكن** " فعندما تفهم وتدرك قول الله عز وجل: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} فالمرض قد يمر فيصيب أهل بيتك كلهم و لا يصيبك، وقد تصاب به دول ويقع منه ضرر فادح وقد يتضرر عدد بسيط.

إذن القضية ليست عقلانية مادية بحتة، بل الأُمور بتدبير من عند الله عز وجل وأن ما شاءهُ كان وما لم يشأ لم يكن، ولذلك من المهم أن نواجه الحدث بعقلانية و نُغلب الصحيح ونبذل الأسباب، وفي المقابل نحرّك عقيدتنا أيضًا معنا وتعمل معنا أنه { لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } فلا الإنسان يُصاب بهلع ولا بوسوسة وفي المقابل أيضًا تتخذ إجراءاتك واحترازاتك،

من المهم أننا ما ننظر لما يحصل على أنه حدث عابر، إنما يجب أن ننظر إلى ما قبل هذا المشهد بصورة واسعة، فنتذكر ما حصل خلال العشر السنوات السابقة، وهل ما يحصل هو شيء طبيعي؟ العالم هل طغى وتجبر؟ الطغيان والجبروت لا يكون في دولة دون دولة، إنما هو في العالم كله.

الجبروت وصل إلى حد الطغيان، فأصبح يُحارب الإنسان على فطرته، فتلاحظ أن كل شيء حولك يتحدث عن حقوق الشواذ وهذا موضوع خطير جدًا، والله عز وجل أهلك قرية، قلب أسفلها أعلاها؛ يقول المفسرون عن قوم لوط أنهم أُخذوا إلى أن سمعت الملائكة صياحهم إلى السماء!

تخيل أنهم رفعوا إلى السماء ثم قلبوا رأساً على عقب وأسقطوا إسقاطاً على الأرض.

إذن قوم لوط ما حصل فيهم جراء منكر واحد فقط شاع فيهم، ما الذي حصل في كل هذا العالم من الطغيان والجبروت؟

كذلك من ضمن حديثنا في الدروس السابقة عن المظاهرات التي خرجت في الغرب لطلب السواسية مع الحيوان، فيطالبون بأن يعيش الإنسان دون قوانين ودون حُكم.

إن الحرية لها حدود، والعالم لو لم يدرك مدى جبروته سيهلك، فلا تنظر إلى ما يحدث بصورة قاصرة، هو حدث يجب أن نضعه في صورته الأكبر من العالم.

في درسنا الماضي ذكرنا مجموعة من الآيات يجب أن تكون منهجًا لنا في هذا الحدث، قال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنى هَذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ}.

عن ماذا نُريد أن نتحدث اليوم؟

إن هذا الابتلاء قد أخبر الله عز وجل عنه في كتابه وقال الله عز وجل : { وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } ، إذن هذا الابتلاء بالنقص في المال وفي النفس وفي الثمرات وفقد الأحباب أو مجرد الخوف والهلع أو الجوع وغيرها ابتلاءات للتمحيص من الله عز وجل ،

قال الله عز وجل : { الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ } فلا يظن الإنسان أن الحياة ستمر عليه دون ابتلاءات ومحن وفتن، فالله يبتلي العباد من أجل أن يستخلص ما بهم من العبودية، والفتنة هي من فتن الشيء، فمثلًا عندما يُقال فتن الذهب: أي أن تُدخل الحديد الصلب إلى داخل النار المحرقة؛ لأجل أن يخرج منها الذهب الخالص، فلا يمكن أن يكون الذهب خالصًا إلا بعد أن يفتن في النار ويخرج منها.

قال الله عز وجل:{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ} أي:إن الله عز وجل يعطيهم الآيات والنُذر وتأتي أمامهم خالصة.

من ضمن أحداث السنة الماضية والتي تستحق كذلك أن يتأمل بها الإنسان هي الكسوف والخسوف، هذا القدر المتكرر والمتتالي منهما ليس بالشيء الهيّن، يقول الله عز وجل { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } أي : إن التعامل مع هذه الأحداث بنوع من الغفلة هذا خلاف المنهج الرباني، قال الله عز وجل {:إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ}

أي: إن القلوب لاهية، وهذا يذكرني بأحداث الخليج التي مرت، عندما كانت تُصدر إنذارات الخطر، فنهلع ونخاف، وننزل إلى أقصى مكان في المنزل، ولا نهدأ إلى أن نُبشر أن الخطر زال، وهذا الشعور يذكرنا بشعورنا الآن، باختلاف واحد.. أن الخطر إلى الآن قائم، ولا تعلم كيف سيأتيك! من ملامسة أو غيرها.

هذا الحدث يعلمك بألّا تتعامل معه بقلب لاهٍ، فيجب أن تعرف قدر الأمور بقدرها، لا تخف لا تهلع، لكن في المقابل لا تأخذها بنوع من عدم الاكتراث.

هل لما نمر فيه من البلاء فوائد؟ بلا شك.. ما هي إذن؟

١. **إظهار حقيقة العبوحية:** أي إظهار حقيقة العبودية في قلبك، ماذا تصنع في دنياك؟ الله عز وجل حينما يبتلي العباد فهذا دليل أنه يريد عودة عباده إليه، قال الله عز وجل : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ على حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ على وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } فمن الناس من يعبد الله على حِرف طول الوقت، إذا أعطاه الله وكان في خير وفي سراء فهو يعبد الله، وإذا أصابته فتنة أو قصرت عليه شيء من النعم كفر وجحد وانقلب حاله إلى أسوأ حال، قال الله عز وجل : {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }ولذلك حقيقة العبودية تظهر في مثل هذهِ الفترات.

قال النبي: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١)أي: أن أمورك كلها خير، سواءً قلّبك الله في السراء أو قلّبك في الضراء، فالمؤمن يخرج منها وهو كاسب، فالبلاء يمر بكل العالم، موجة تضرب بلد وتنتهي منه تضرب بلد آخر، تنتهي منه هناك ليُمحص الله فيها العباد في مكان آخر،

فكل الناس مبتلين نعم.. مؤمنهم وكافرهم نعم.. لكن الله يصطفي في هذا الابتلاء المؤمنين الخُلص ويرى ردود أفعالهم وعبودياتهم التي تخرج في مثل هذهِ الأوقات، يقول النبي: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ» (٢) الهرج يعني كثرة القتل والقيل والقال، والشعور أن قلبك وعقلك مشغولان دومًا بالأحداث، هذا الانشغال اللاهف المتتالي يجعلك تنشغل عن حقيقة الشيء الذي يريده الله عز وجل منك، تنشغل عن أن تكسب من هذا الابتلاء ما فيه من الخير الكثير لك.

"لولا حوادث الأيام لم يُعرف صبر الكِرام ولا جزع اللئام"

هذهِ الأيام لو ما وقعت ما عُرف فيها صبر الكِرام ولا جزعُ اللئام، والذي لم يتعود على هذا تجده هالعًا جازعًا؛ لأنه لا يملك إلا دنياه فقط فيتكلم عن الحياة من غير أن يعرف ما وراء الحياة، والأهم ليس أنك تحيا! الأهم أنت على أي أساس ستحيا؟ حياتك هذه هل ستصل بك إلى نعيم مقيم في الجنة؟ أم عذاب سرمدي في جهنم؟ - نسأل الله العافية - اسأل نفسك.. حياتك إلى أين ستوصلك؟

٢. **الابتلاء يُكفر الله بهِ ذنبك:** ولا أقصد فيه من يُصاب بالألم ولا يُصاب بالمرض ولا بالفايروس، إنما كل ما يصيبك من مشاعر الهم والحزن والصبر يكفر الله بها عنك،

---

(١) أخرجه مسلم، صحيح.

(٢) أخرجه مسلم، صحيح.

ودليل هذا ما قالهُ النبي: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (٣)

إذن قلقك وحُزنك وهمك هذه الفترة هو تطهير وتكفير لك ولو أُصيب المؤمن فيه - نسأل الله أن يحفظ الجميع - أيضاً هو ما أصابك فيه إنما هو كفارات لك ويرفع الله عز وجل درجاتك،

يقول النبي: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٤)، وقال ابن القيم: " من خلقه الله للجنّة لم تزل هَدَايَاهَا تَأتيه من المكاره وَمن خلقه للنار لم تزل هَدَايَاهَا تَأتيه من الشَّهَوَات "

تخيل أن البلاء قد يُصيب المؤمن فلا يزال هذا البلاء يأتيك هدية حتى تلقى الله وعليك خطيئة واحدة فقط، ولو تبحث في أحاديث الحمى ترى أنها تحط عن الإنسان خطاياه، وهذا ما جاء في لفظ الحديث.

فتخيل أن المؤمن يرى هذهِ الابتلاءات حينما تأتيه على أنها فترات تطهير وكفارات، كيف يجزع بعد هذا؟

يقول النبي: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٥)، وفي روايات أخرى «...، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٦)

أن تمشى على الأرض دون أي خطيئة! بكم تُشترى؟ تخيل إذن أن تعود كيومٍ ولدتك أمك فقط ببلاء.. انظر إلى كرم الله عندما يغفر لك ثلاثين، أربعين سنة من عمرك! تخيل أن الله يغفرها فقط بهذا البلاء، بل ويرفعك درجات بها لمجرد هذا الابتلاء.

٣. **أن الله يرفع لك به المقام العالي والدرجات في الجنّة**: إن الفساد الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس حقيقة،

لكن أيضاً قد يكون لأُناس آخرين هو رِفعةً لدرجاتهم.. فما كل من مر عليه البلاء كان عقوبةً له، قال النبي: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(٧)

فقد يريد الله لك المنزلة العالية مع الصديقين والشهداء والصالحين، لكن لا تملك عمل يكفيك لذلك، فالله يبتليك حتى يرفع مقامك،

أبو بكر رضي الله عنه قيل عنه : « ما سبقكم أبو بكرٍ بكثيرِ صلاةٍ ولا صيام ولكن بشيءٍ وقر في قلبهِ » سُمي بالصديق من شدة اليقين والتصديق في نفسه ، وسماه الله الصاحب في كِتابه وهذه مرتبة ما تعطى لأي أحد، لم يكن بكثرة صلاةٍ ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه .. هذا الشي الذي يوقظ القلب من حلاوة الإيمان ولذته وصدق اليقين والاعتقاد في القلب، من أين نحصل عليه؟ وبكم يُشترى؟ وكم نحتاج من الحقائق التي يُظهرنا الله فيها من ابتلاءات وفتن إلى أن تظهر هذه الحقيقة؟

تخيل أن الله كتب لك تلك المنزلة لأمرٍ يعلمه الله في نفسك، بر في والدين، صدقة خفية، إخلاصك في عمل، قيام ليل، فيرد الله عز وجل أن يثيبك على هذا بالأجر الكبير الذي ربما عملك لا يستحقه، فكيف يكون؟ بالابتلاء.

---

(٣) أخرجه مسلم، صحيح.

٤) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

٥) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

٦) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

٧) أخرجه ابن حبان، وقال الألباني: صحيح.

فلا يزال الله يبتليك بالمكاره، أي الشيء الذي لا تحبّه، فيبتليك الله فيه ليبلغ بك أعلى المراتب ويجعك الله من أهل تلك المرتبة العلية.

٤. **أن الله يبتلي الناس ويعدهم بالعوض**: المؤمنون حينما يمرون بمثل هذا الابتلاء الله يعدهم لأمرٍ هو أكبر من الحياة التي يعيشونها.

ولذلك هذه الابتلاءات ليست بالشيء الهين، قيل للإمام الشافعي: أيهما أفضل أن يُبتلى الرجل أو يُمكن؟ قال: لا يُمكن حتى يُبتلى، فلا يمكن لأي أمة أو حضارة أن تُمكن دون أن تُبتلى، ولذلك الناس في الملمات والنوازل لمن يفزعون؟ ما فزعنا لمطرب ولا لمغني ! فإذا وقع البلاء ما يفزع لمثل هؤلاء، وإنما يفزع للعلماء، لمن يستترون بنور الله عز وجل.

فالله يبتلي العباد ليُخرج ما فيهم وليُربيهم، فمن معاني اسم " الربّ " أن الله يربي عباده، يربيهم بالنعم ويربيهم أيضًا بالنقم، ولذلك لما ذكرت أن إظهار حقائق العبودية فيه ما لا يظهر في نفسك إلا عندما تتعرض إلى ابتلاء يجعلك تعرف حقيقتك وحقيقة من تعبد.

٥. **أن الابتلاء يجعلك تُفكر في الحال والمآل**: أي أن ترجع فتفكر مرة أخرى بحياتك ومآل حياتك ومآل الطريق الذي تسير به، هذهِ الدنيا التي نركن عليها ليست بشيء! والناس الذين يعيشون الدنيا دون أن تفكر في آخرتها لن تكون شيء يوم القيامة،

فلا تحرم نفسك لذة النعيم في الآخرة لأجل نعيم زائل في الدنيا، قال الله عز وجل:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، وعن عاد قال الله عز وجل :{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ} لماذا قالوا " مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ "؟ نحن عندما نتكلم عن آدم فهو خُلق بستين ذراعاً أي ٤٢ متر، عاد كانت أطوالهم بقدر ما تساوي ٧٥ متر، فكانوا يرون ألا أحد أقوى منهم، فتخيل أن الجِبال أُلينت لهم، لذلك حضارة عاد لم تكن عادية، فاستكبروا و اغتروا بجبروتهم، قال الله عز وجل:{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}.

على ماذا أنت تتقطع حسرة على هذه الدنيا؟ راجع حساباتك وراجع حياتك، كم يشغل الخير من حياتك وكم يشغل الشر؟ ١٤٠٠ سنة لمن يذكرها هي لا شيء في مقابل ٣ ملايين مليار سنة، وهذا على ما يقال عن عمر الأرض في الأحافير وغيرها، ولذلك يشتكون ألف سنة لكن هي كأنها خمس دقائق في عمر تاريخ البشرية.

فلا تحزن على الدنيا، فوالله لو فاتتك الدنيا كلها لم يفتك شيء! لا تحزن إن لم تكن حياتك الدنيا كما تشتهي، في تخصصك أو في مالك، زوجك، أبناءك، أو أيًا كان!

لا تحزن، لم يفتك شيء، وربما مستقبلك أعظم مما مضى بكثير، قال عز وجل:{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ}

خذها فرصة ذهبية لك لتراجع نفسك، حاول أن تراجع جميع أحوالك، وانظر إلى أين ستصل؟ ما هو الذي يستحق التقديم والتأخير؟ والذي يجب أن أضعه من ضمن الأولويات؟ فلا تؤخر ما حقه التقديم ولا تقدم ما حقه التأخير.

٦. **الابتلاء يُخرج العُجب من النفوس ويجعلها أقرب إلى الله**: هذه الفائدة حصلت وتعلمنا هذا الدرس في عهد النبي ومع أعظم الخلق إطلاقاً،

في غزوة حُنين خرج النبي ومعه المهاجرين والأنصار ولأول مرة يتجمع الآلاف المؤلفة من جيش عرمرم، فترى أكثر من عشرة آلاف مع النبي، وقبلها بثلاث معارك كان قد خرج ٣٠٠ فقط في غزوة بدر، ولذلك لما التفت المسلمون إلى أنفسهم وطالعو هذا الجيش الكبير من المسلمين الجدد الذين لم يتمكن الإسلام في قلوبهم بعد، قالو: من أشدّ منا قوة؟ فمُكّن منهم لأن ثقيفًا قد وضعت كمينًا مدروسًا، فخسروا في المعركة من أول خمس دقائق، لمجرد ما قام في قلوبهم من الغرور بكثرتهم،

ظن المسلمون الجدد في لحظة أنه لا يمكن أن يغلبهم غالب فتعلموا الدرس الثقيل، بأن الهزيمة ليس من يدكم ولا بأنفسكم وإنما بصلاح في قلوبكم، ولذلك هذه العشرة آلاف انهزموا عن بكرةِ أبيهم ولم يبق إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينادي في أصحابه : «أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ»، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللَّهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ،...(٥٨)

لأن الكمين فيه سهام وفيه رماح فكانت الحيوانات تهرب من هذا، فكانوا يعقرون الدواب الذين هم عليها ويرجعون بصدرهم إلى النبي، العدد القليل الذي كان موجود كتب الله على أيديهم الفوز.

الابتلاءات تُخرج هذا العُجب من النفوس، فتعلم أنك دون الله لا شيء، وتعلم أن القضية ليست بعلمك ولا بمالك. قال الله عز وجل في هذهِ الابتلاءات: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} أي: يبتليهم، قال القاسمي في تفسير هذه الآية: "أي لينقّيهم ويخلّصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس" آفات النفوس: أي هذا العُجب ممكن يأتيك في لحظة وبعضنا ما يأتيه العُجب لمن ينتمي له سواء بلد أو قبيلة، قد يأتيه بصحة وعافية، وقد يأتيه بسعة علم وسعة رزق!

لكن هذا العُجب سيُلقنك درسًا قاسيًا في نفسك، فالابتلاءات تجعلنا ننهزم أمام هذا العُجب فيخرج هذا العجب من النفوس.

الدرس الأكبر والأعظم وهو السابع : درس في التوحيد.

٧: **أن الله عز وجل هو القوي المتين وأنك دون الله لا شيء**: نحن دون الله لا شيء، لطالما نكررها دومًا في دروسنا، لكن يجب علينا أن نستشعرها وندركها بحق، انظر حولك واستذكر ما يخافه الناس الآن، فايروس لا يُرى بالعين المجردة! شيء لا يلمس! كل العالم يرتجف منه، الحكومات والدول والكبير والصغير! الجميع! يا الله ما أضعفنا وما أعظمه، هذا العذاب الأدنى من الهم والضيق والابتلاءات ، دون العذاب الأكبر!

(٥٨) أخرجه مسلم، صحيح.

هذا العالم ضعيف وهش.. في لحظة الله قد يُسلط عليك شيئًا وأنت لا تعلم من أين يأتيك! فبماذا نغتر نحنُ؟ وممن نخاف دون الله؟

الإنسان يُخطط لشيء ويأتيه شيء خارج عن تخطيطه، كنا نمشي في دروسنا وعملنا واستعدينا لرجب وأسماء الله الحسنى وتدبرها، لكن الله قدّر شيئًا آخر تمامًا، كنا سنأخذ عن اسم الله القوي القهّار وأثناء تدبرك لهذين الاسمين ترى أنك لا شيء،

ففي تعريف ابن جرير له : « قال الله القوي الذي لا يغلِبهُ غالب ، ولا يرد قضاءه راد ينفذ أمره ، ولا يرد قضاؤه في خلقه ، شديد عقابه لمن كفر بهِ » هذا الذي لا يغلبه غالب ولا يرد قضاءه راد، وينفّذ أمره مهما كان ولا يرد قضاؤه في خلقه، فإن أمسك الله عز وجل على الناس رحمة فلا قدرة لأي إنسان أن يفتحها على الناس، وما يفتح الله عز وجل للناس من رحمة فلا ممسك لها،

فممن تخاف أنت في حياتك من بعد الله وإلى من تلجأ؟ إلا إلى الله.. ولذلك نحن في دعائنا نقول "اللهم إنا نعوذ بك منك ونلجأ منك إليك" كل الناس إذا خفتهم هربت منهم، إلا الله عز وجل إذا خِفتهُ هربت إليه.

هذا الدرس العظيم هو الدرس السابع في التوحيد والإيمان أنك دون الله لا شيء، ولست وحدك الضعيف إنما العالم بأجمعه ضعيف، يقول ابن القيم في زاد المعاد: «فلولا أنه سبحانه يداوي عبادهُ بأدويةِ المِحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانهُ إذا أراد بعبدٍ خيراً سقاهُ دواءهُ من الابتلاءِ والامتحانِ على قدرِ حاله، يستفرغُ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذّبهُ ونقّاهُ وصفّاهُ أهَّله لأشرفِ مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفعُ ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه».

٨. **إظهار حقائق الناس ومعادنهم:** معادن الناس لا تظهر بالرخاء، معادن الناس تظهر بالشدّة، يظهر من يُكرم ومن لا يُكرم، ومن الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة،

فالجهود التي يفعلها الأطباء والعساكر والمعلمون ، يجلسون في مرابطة تامة هذا ليس شيئًا هينًا! قال الفضيل بن عياض : " الناس ما دامو في العافية فهم مستورون ، فإذا نزل بهم البلاء صاروا إلى حقائقهم " العافية تسترنا كلنا، ووقت البلاء عندما يصبح هناك غلاء في الأسعار وكثرة المحتاجين يجب أن نتوارى عن هؤلاء، فلا ننظر فقط إلى أنفسنا وإلى مصالحنا الشخصية، إنما نؤثر أنفسنا على هؤلاء ولو كان بنا خصاصة!

أبو بكر رضي الله عنه ظهر له هذا المعدن في اللحظة التي كفر فيها أغلب الناس، ففي حادثة الإسراء والمعراج لما استهول الناس قول النبي: سَعَى رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: هَذَا صَاحِبُكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ رَجَعَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَشْهَدُ إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ فَقَالُوا: أَتُصَدِّقُهُ بِأَنَّهُ جَاءَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَرَجَعَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَعَمْ إِنِّي أُصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا".(٩)

من الذي يُثبت في مثل هذهِ المواطن ؟ لذا تظهر حقائق معادن الناس في مثل هذه اللحظات.

٩) أخرجه عبد الرزاق، وقال الألباني: هذا سند صحيح مرسل.

٩. **الابتلاء يُذكرك بذنوبك شخصيًا**: أي إن الرسائل التي تصلنا طوال الوقت بالعبادات والأذكار والدعوات بضرورة التوبة والتضرع والاستغفار يجب أن تفعل بها أن ترسلها للآخرين ليفعلو بها، ما دورك في رفع التوبة إلى الله ورفع العمل الصالح؟ أنا أتكلم عن بيتك الذي تعيش فيه، ماذا يُرفع فيه من عملٍ صالح؟

أحد العلماء ذكر أن الملائكة تنظر لأصحاب قيام الليل كأنهم نجوم الأرض، مثلما ننظر نحن للسماء فنرى النجوم ، فكذلك الملائكة ترى أصحاب قيام الليل مثل النجوم، عندما تنظر الملائكة إلى غرفتك أنت شخصياً، ماذا يُرفع منها؟ هل ترى إنسانًا نائم لم يرفع منه دعوة صادقة ولا توبة أم إنسانًا تائبًا مُستغفرًا ساجدًا لله عز وجل؟ هي ركعتان تكفي بأن تجعل ليلتك مليئة الخير.

زبيدة زوجة هارون الرشيد حفرت ودفعت من مالها الشخصي حتى تحفر عين زبيدة تسقي فيها الحجيج الذين كانوا يموتون من شدة الهلكة، ومع ذلك حينما ماتت ورؤيت في المنام قالوا: ما فعل الله بك؟ قالت: الآن فرغت من الحساب وقد غفر الله لي، فقالو لها: بعين زبيدة؟ فقالت وما عينُ زبيدة؟ إنما غفر الله لي بركعتين كنت أركعهما في ظلام الليل، ولذلك لا تحقرنّ من لمعروفٍ شيئاً كما ألا نحقر من الشر شيئاً.. سألت عائشة رضي الله عنها أو غيرها من أمهات المؤمنين قالوا يا رسول الله: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(١٠)

النعمان بن بشير يقول : " كل الهلكة هو عمل السيئات في زمن الابتلاء " ليس شيئًا هينًا أنك تبارز الله في لحظة الابتلاء، قال الله عز وجل :{ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِئَةٍ فَمِن نفسِكَ } وقال عز وجل في آية أخرى :{ وَمَا أَصَابَكُم من مصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أَيدِيكُم وَيَعفُوا عَن كَثِير } الله يعفو عن كثير مما لا نعده لكن الله عز وجل أحصاه ، هذا الابتلاء الذي قد يُصيبنا به الله عز وجل هو بما كسبت أيدينا ولا ينتظر الإنسان هذا الابتلاء حتى يضرب لديه جرس التنبيه رغمًا أنه ضرب الآن! لكن منا من أخذه على محمل الجد، ومنا من أخذه على محمل الهزل، ومن لم ينظر له بعين المؤمن سيبقى أبد حياته شقيًا.

١٠. **أن هذا الابتلاء يكشف لنا حقيقة الدنيا وأنها متاع الغرور:** بهذا الضعف الذي نحن به تلاشى كل شيء، كنا نظن أن في ١٤٤١ هـ أن السيارات ستطير وأن الحضارة ستصل إلى مرحلة عظمى، لكن الله يعلمنا أن الدنيا متاع الغرور وكل هذه البشرية والحضارة قد تهلك في لحظة،

ولذلك بعضهم يقول البشرية وحضارتنا هشة جدًا، فلا نستطيع أن نعتمد عليها لأن كل شيء قد يفنى بلمح البصر! فلا يمكن أن تنظر للدنيا على أنها متاع حقيقي! هي ليست متاع حقيقي، بل متاع زائل، ولذلك قال الله عز وجل:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} وقال عز وجل:{وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي: إن الحياة الباقية هي التي ستبقى لك وهي المستمرة التي لن تفنى وهذهِ الدنيا كلها إنما هي متاع الغرور.

١١. الابتلاء يذكرك بزحام النعم التي كنا فيها..

وجوهكم النيّرة هذه نعمة نفتقدها الآن! فنعمة الجمعة مع الأهل والأصحاب ومجالس الذكر هذه نعمة لم نكن ندركها! فنسأل الله أن يجعلها تكفيراً للسيئات ورِفعةً للدرجات ونسأل الله ألا يُطيلها علينا وعلى المسلمين وعلى أمة النبي، هذا كله يجعلك تتذكر زِحام النعم التي كنت فيها.

---

١٠) أخرجه البخاري، صحيح.

المرض العارض الذي كان يأتي ويذهب الآن قد يأخذ حيزًا أكبر لأي سبب كان، زِحام النعم التي كان فيها الإنسان يستشعرها الآن عندما تبدأ تفقدها واحدة تلو الآخر، فإذا وصل البلاء اتضحت وظهرت الناس على حقائقها، فقلبك الآن مُعلق بماذا؟ فيجب أن تسترضي الله عز وجل وأن يكون كل همك في حياتك هو رضاه وجنته.

١٢. **هذا الابتلاء كله يشوّقك إلى الجنّة:** الذي لم يشتق للجنة، اشتاق لماذا! هذا العالم دار نكد لن يصفو لأحد، دار الغرور هذا كله يشّوقك إلى من قال: " غرستُ كرامتهم بيدي " قَالَ النبي: قَالَ اللَّهُ «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (١١)
وحينما سأل عن عباد الله عز وجل قال: هؤلاء الذين سألت غرستُ كرامتهم بيدي. الله عز وجل الذي غرس الكرامة بيدهِ لهؤلاء، أفلا يُشوقك ذلك إلى الجنّة؟ الذي يتعلق بالدنيا لا يمكن أن يشتاق إلى الجنة؛ لأن ضغط الحياة تجعل الناس تساوي الدنيا بالآخرة!

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: " لولا الجنّة لكان غير ما ترون " أي :لتنعمنا من الدنيا، فلولا ذكر الآخرة وذكر القيامة لكان غير ما ترون، أي كنا سنعيش حياة أُخرى، لكن ذكر أن الدنيا لا تستحق أن أبيع لأجلها رضا الله، فلو كان هذا الابتلاء لا يُذكرك بحقيقة علاقتك مع الله، فمن سيذكرك إذن؟ قال بشر الحافي: " هب أنك ألا تخاف الله ويحك ألا تشتاق!! روحك ما اشتاقت إلى الله؟ من أعظم بحياتك من الله عز وجل؟ العالم ماذا فعل بقلبك؟ جعلك ماديّ بطريقة كبيرة! أصبحت متعلقًا بالدنيا فتغيب حقيقة الحياة من نصب عينك، هذا الابتلاء ألا يوقظ شيئًا ما في عقلك؟ عقلك الكبير الذي يسع هذا العالم ألم يستيقظ من سباته!
هذه الفوائد من الابتلاءات، التي أسأل الله عز وجل أن يرفعها عنّا وعن المسلمين.

ونختم بالواجب علينا عند وقوع البلاء، ماذا يجب علينا عند وقوع البلاء؟

١. **تأكد أنك تملك اليقين في الداخل أن هذا كله بأمر الله ..**

لا تغلّب جانب العلم على أمر الله، أدرك في قلبك واعتقادك أنك تعلم أن ما يحدث في هذا الأرض هو من أمر الله، تأكد وافحص قلبك أن هذا اليقين موجود؛ لأن هذا هو مصداق لا إله إلا الله فلا معبود بحقٍّ في هذهِ الأرض إلا الله عز وجل.

٢. **لا تخالف أمر الله، لا تفضّل في هذا الوقت على الله عز وجل أحد ..**

النعمان بن بشير يقول: الهلكة كل الهلكة أن تبارز الله بالسيئات في زمن الابتلاء. إن كنت تستطيع أن تسقط ذنبًا واحدًا عن كتفك فافعل، أنا وأنت إذا لم نستبدل عمل الشر بالخير، فمن سيفعل؟ فلا تخالف أمر الله عز وجل ولا تجترئ على حدوده ولا تتسخط ولا تسبّ الدهر.. سبّ الدهر كثير من يتناقله دون انتباه! فلا تقل هذهِ سنة سيئة، رغم أن الإنسان قد يستغرب الأحداث، لكن يجب عليك ألا تتسخط، وانتبه من ذلك، لأن الله عز وجل هو الدهر، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: " يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ".(١٢)
إذن إذا كانت لا إله إلا الله لا زالت موجودة في قلبك فانتبه أنك أنت تُبارز الله بمعصية، نحن الآن في النوازل فيجب

---

(١١) أخرجه البخاري، صحيح.
(١٢) أخرجه البخاري، صحيح.

على الإنسان أن يغلب فيها جانب الخير، افعل الخير وانشره بين الناس، واحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣. أن تستغفر الله وأن تتوب إليه ..

قال الله عز جل:{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ} الله لا يحب العذاب على عباده، بالدرس الماضي تحدثنا حول فرحة الله بتوبة عبده، إن الله يفرح بتوبة أحدكم من العبد الذي كان في صحراء قاحلة يوشك على أن يهلك في تلك الرمضاء في تلك الحرارة والراحلة التي لا فيها ماء ولا زاد، وجلس ينتظر الموت فإذا راحلته أمامه قال: ياربّي أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح.. المثال هذا كله أتى به النبي في سياق فرحة الله بتوبة عبده، والله يفرح بتوبتك، والله عز وجل هو المستغني عنك وهو الذي لا يضره فجر الفاجرين ولا صلاح الصالحين والله لا يضره إنسان لو عصا الله ولا ينفعه مدح المادحين ولا طاعة الطائعين ومع ذلك ما نستقبله من واجب علينا أن نجعل هذه التوبة هي التي تُرتفع لله عز وجل من أعمالنا.

٤. أن يتعاطى كل سببٍ نافع في دفع هذا البلاء ..

أن يعمل بالأسباب التي تدفع البلاء سواءً من الشرعِ أو مما ذكره أهل الطب والعلم وثبتت تجربته .

من الأسباب الشرعية أذكارك دعواتك ومن أجمل ما قيل في هذا الصدد هو كتيب صغير للشيخ : عبدالرزاق البدر عشر وصايا للوقاية من الوباء، هذه العشر الوصايا جميلة تقرؤونها لأنفسكم و تقرؤونها مع أطفالكم وتعودونهم على هذه الأذكار من قوله : «مَنْ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ، حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ»(١٣)

وذكر فيها عشرة نقاط، وهناك نقطتين أريدكم أن تنتبهون لها، قال النبي: «غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ»(١٤) ،

قال ابن القيم في شرح هذا الحديث : « وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم ».

إذن.. نحن لا ننتظر البلاء حتى يأتي وإنما نتعاطى الأسباب ونتوب ونستغفر الله، قال عز وجل:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} فما كان الله عز وجل يعذب عباده وهم يستغفرون، وفي حديث فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ النبي أنه قَالَ: «الْعَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، مَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ»(١٥)

إذن الاستغفار وقراءة القرآن والأدعية والأذكار هذا شيء مهم، وفي المقابل أيضاً لا يقل أهمية عن أخذك بالأسباب التي أمرنا الله عز وجل فيها، فنحن لا ننتظر كرامات، ولا ننتظر معجزات، ولا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة،

---

١٣)) أخرجه أبو داود، وقال الألباني: صحيح.

١٤) أخرجه مسلم، صحيح.

١٥) أخرجه أحمد، حسن بمجموع طرقه.

وإنما تعقم يديك وتتجنب المصافحة وتبعد عن الاجتماعات العامة وتجلس في بيتك بقدر ما استطعت، وبإذن الله نتجاوزها في القريب العاجل.

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، أَنَّهَا سَأَلَتْ النبي عن الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[١٦] فهذا أجر شهادة من جلس في مكانه وبلده صابراً، يعلم أنّه لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

ختاماً..

أسأل الله أن يقينا وإياكم شر هذا البلاء وأن يرفعه عن المسلمين وعن أمّة محمد ﷺ ونسأله خير ما عنده عاجله وآجله ما علمنا منه وما لا نعلم، ونعوذ به من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لا نعلم وحفظكم الله أينما كنتم.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

[١٦] أخرجه البخاري، صحيح.